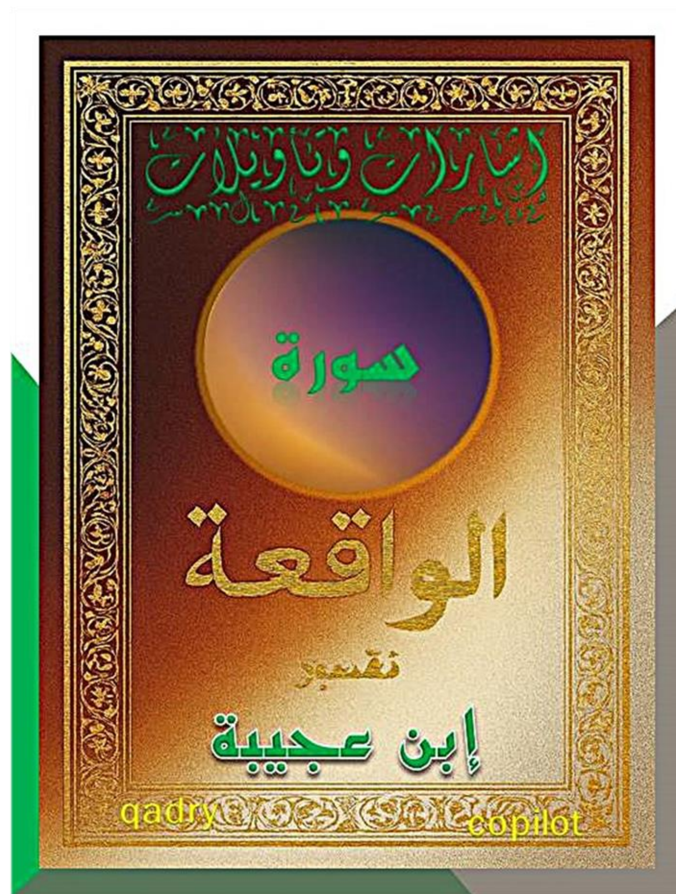


سورة الواقعة

تفاسير وتأويلات

إبن عجيبة

إختصار و إعداد:قدرى جاد

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد

ابن عجيبة (ت 1224 هـ) مصنف و مدقق

{ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ } * { لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ } * { خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ } * { إِذَا رُجَّتِ ٱلأَرْضُ رَجّاً } * { وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً } * { فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً } * { وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً } * { فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ } * { وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ } * { وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ } * { أُوْلَـٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ } * { فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ }

قال ابن عطية: رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

" مَن داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً "

، ودعا عثمانُ عبدَ الله بنَ مسعود إلى عطائه، فأبى أن يأخذ، فقيل له: خُذ للعيال، فقال: إنهم يقرؤون سورة الواقعة، وسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:

" مَن قرأها لم يفتقر أبداً ".

قال ابن عطية: فيها ذكر القيامة، وحظوظ الناس في الآخرة،

وفَهْمُ ذلك غِنىً لا فقر معه، ومَن فهِمه شُغل بالاستعداد.هـ.

وقال مسروق: مَن أراد أن يعلم نبأ الأولين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة.هـ.

{ إِذا وَقَعت الواقعةُ } إذا قامت القيامة،

وذلك عند النفخة الثانية، ووُصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة،

فكأنها واقعة في نفسها، كأنه قيل: أذا وقعت التي لا بُدّ من وقوعها.

ووقوع الأمر: نزوله، يقال: وقع ما كنت أتوقعه، وانتصاب { إذا } يُنبئ

عن الهول والفظاعة، كأنه قيل: إذا وقعت الواقعة يكون من الأهوال

ما لا يَفِي به المقال، أو: بالنفي المفهوم من قوله: { ليس لِوقعتها كاذبةٌ } أَيِّ: لا كذب وقت وقوعها، أو: باذكر، أو: بمضمون السورة قبلها،

أَيِّ: يكون ما ذكر من نعِيم الفريقين إذا وقعت الواقعة، ثم استأنف بقوله: { ليس لوقعتها كاذبةٌ } أَيِّ: لا يكون عند وقوعها نَفْسٌ تَكذب على الله،

أو: تكذب في نفسها كما تكذب اليوم، لأنَّ كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدّقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذّبات، واللام مثلها في قوله:

{ قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى } [الفجر: 24]،

أَيِّ: ظرفية، أَيِّ: ليس عند وقوعها كذب، أو: تعليلية،

قال الفراء: { كاذبة }: مصدر، كالعاقبة والعالية،

وقيل: صفة لمحذوف، كما تقدّم.

{ خافضةٌ رافعةٌ } أَيّْ: هي خافضة لأقوام، رافعة لآخرين،

وهو تقرير لِعظمها وتهويل لأمرها، فإنَّ الوقائع العِظام شأنها كذلك،

أو: بيان لِما يكون يومئذ من حَطّ الأشقياء إلى الدركات، ورفع السعداء

إلى الدرجات، ومن زلزلة الأشياء وإزالة الأجرام عن مقارها، بنثر الكواكب وتسيير الجبال، كما أبان ذلك بقوله: { إِذا رُجَّتِ الأرضُ رجّاً }: حُرِّكت تحريكاً شديداً حتى تهدِم كلَّ شيء فوقها، من جبل وبناء،

وهو متعلق بخافضه، أَيّْ: تخفض وترفع وقت رج الأرض،

أَيّْ: عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض،

أو: بدل من: { إذا وقعت } ، وجواب الشرط: { فأصحاب الميمنة } ، والمعنى: إذا كان كذا فأصحاب الميمنة ما أسعدهم، وما أعظم ما يُجازون به، وما أعظم رتبتهم عند الله في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم.

وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل.

{ وبُسَّتِ الجبالُ بسًّا }

أَيّْ: فُتنت حتى صارت كالسويق الملتّت، من: بسَّ السويق: إذا لتّه،

أو: سِيقت وسُيّرت عن أماكنها، من: بسّ الغنم: إذا ساقها، كقوله تعالى:

{ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ } [النبأ: 20].

{ فكانت } أَيّْ: فصارت بسبب ذلك { هباءً } غباراً { مُنبثاً } منتشراً متفرقاً

في الهواء، والهباء: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا يكاد يُرى

إلاّ في الشمس إذا دخلت في كُوة، { وكنتم } معاشر الخلق، أو: أيتها الأُمة

{ أزواجاً } أصنافاً { ثلاثة } صنفان في الجنة، وصنف النار،

قال قتادة: هي منازل الناس يوم القيامة.

ثم فسّر تلك الأزواج، فقال: { فأصحابُ الميمنة } وهم الذي يؤتون صحائفهم بأيمانهم { ما أصحابُ الميمنة } ، تعظيم لشأنهم

والأصل: فأصحاب الميمنة ما هم؟

أَيّْ: أيّ شيء هم في حالهم وصفتهم؟

فوضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التعظيم،

ومثله:{ الْحَآقَّةُ مَا الْحَآقَّةُ } [الحاقة: 1، 2] ونظائرها.

{ وأصحابُ المشئمةِ } أَيّْ: الذين يُؤتون صحائفهم بشمالهم

{ ما أصحابُ المشئمة } أَيّْ: أيّ شيء هم؟!

تعجيب من حالهم الفظيع، أو: فأصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة، من قولك: فلان مِني باليمين، وفلان مِني بالشمال

إذا وصفتهما عندك بالرفعة والوضعة،

وذلك لتيمُّنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل،

وقيل: يُؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين، وبأل النار ذات الشمال.

وقال القشيري: أصحاب الميمنة: هم الذين في جانب اليمين من آدم وقت ذرَّ الذرية من صُلبه، وأصحاب المشئمة الذين كانوا في جانب شماله.هـ.

قلت: وكذلك رآهم النبي - عليه الصلاة والسلام - ليلة المعراج.

{ والسابقون السابقون } مبتدأ وخبر،

لأنّ المبتدأ إذا أُعيد بنفسه خبراً دلَّ على التفخيم، كقوله الشاعر :

أنا أبو النَّجْمِ وشِعْري شِعْري

والمعنى: والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالُهم، وعُرفت محاسنهم،

أو: والسابقون إلى الخيرات هم السابقون إلى الجنات،

وقال أبو السعود: { والسابقون } فإنَّ المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيان أنفس الأقسام، وأمّا أوصافها وأحوالها فحقها أن تُبين بعد ذلك بإسنادها إليه، والتقدير: فأحدها أصحاب الميمنة، والآخر أصحاب المشئمة، والثالث السابقون.

ثم أطال الكلام في ذلك، فانظره.

واختُلف في تعيينهم، فقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان، وإيضاحه، عند ظهور الحق من غير تلعثم ولا توان، وقيل: الذين سبقوا في حيازات الفضائل والكمالات، وقيل: هم الذي صلُّوا إلى القبلتين،

{ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ } [التوبة: 100]

وقيل: السابقون إلى الصلوات الخمس، وقيل: المسارعون في الخيرات.

والتحقيق: أنهم السابقون إلى الله بالمجاهدة والمكابدة،

حتى أفضوا إلى مقام المشاهدة، وهو مقام الإحسان.

{ أولئك المقرَّبون } أشار إليهم بإشارة البُعد مع قُرب العهد للإيذان

ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف، أيّ: أولئك السابقون إلى الله هم المقربون
إلى الله في الكرامة والتعظيم، الذي تلي درجاتهم درجات الأنبياء،

وهم { في جنات النعيم } أيّ: ذات التنعُّم، فتَصْدق بالفردوس،

التي هي مسكن المقربين، وإنما أخَّر ذكر السابقين مع كونهم

أحق بالتقدُّم في الذكر ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم،

ويتخلّص إلى ذكر نعيمهم الآتي، على أنّ إيرادهم بعنوان المسبق مطلقاً
مُعْرِبٌ عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الأمور .

الإشارة:

إذا وقعت الحقيقة المتوقعة للمتوجهين كان من العلوم والأسرار

ما لا تُحيط به عامة الأفكار، ووقوع الحقيقة: برزوها معهم،

وإشراق أنوارها على قلوبهم، فتفنى الكائنات وتضمحل الرسوم والإشارات،
ويبقى الحيّ القيوم وحده، كما كان وحده، ليس لوقعتها كاذبة

لا كذب في وقوعها، ولا شك في إظهارها على مَن توجه إليها،

وصَحِبَ أهلها، وحطّ رأسه لأربابها، وامتثل كل ما يأمرونه به،

خافضة لمن توجه إليها، وَوَصَلَ لأنوارها، وتحقق بأسرارها.

يعني: هكذا شأنها في الجملة، تخفض قوماً وترفع آخرين،

وإنما تقع لمَن توجه إليها.

إذا رُجت أرض النفوس منه رجّاً، أيِّ: تحركت واضطربت، بمنازلة الأحوال، وارتكاب الشدائد والأهوال، وتوالي الأذكار،

والاضطراب في الأسفار، فإنَّ كُمون سرها في الإنسان كَكمُون الزبد في اللبن، فلا بد من مخضه لاستخراج زُبده.

وبُست جبال العقل منه بسّاً، فكانت هباءً مُنبثاً لأنّ نور العقل يتغطّى بنور شمس العرفان، ويضمحل كما يضمحل نور القمر إذا طلعت الشمس،

وكنتم أيها الطالبون المتوجهون أصنافاً ثلاثة:

قومٌ توجهوا إليها، ثم قنعوا بما برز لهم من شعاع أنوارها،

وهم عامة المتوجهين

وقوم استشرفوا عليها فلم يطيقوا أنوارها، فرجعوا القهقرى،

وهم أهل الحرمان، من أهل المشأمه .

وقوم أدركوها، وتحققوا بها ذوقاً وكشفاً، ففنوا وبقوا، سَكروا وصحوا،

وهم السابقون المقربون في جنات المعارف، ونعيم الشهود، أبداً سرمداً، جعلنا من خواصهم آمين.

ثم بيَّن تعالى كثرة السابقين وقتلهم باعتبار الزمان، فقال:{ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ }.

{ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلأَوَّلِينَ } * { وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلآخِرِينَ } * { عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ } *
{ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ } * { يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ } *
{ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ } * { لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ } *
{ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ } * { وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ } * { وَحُورٌ عِينٌ } *
{ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ } * { جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } *
{ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً } * { إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً }

{ ثُلّةٌ } أَيّْ: هم ثلة، أَيّْ: جماعة كثيرة { من الأولين } والثُلة: الأمة الكثيرة من الناس، { وقليل من الآخِرين } ممن يتأخر من هذه الأمة،

والمعنى: أن السابقين في أول الأمة المحمدية كثير، وفي آخرها قليل، وذلك أنَّ صدر هذه الأمة كَثُر فيها خير، وظهرت فيها أنوار وأسرار، وخرج منها جهابذة من العلماء والأولياء، بخلاف آخرها، السابقون فيها قليلون بالنسبة إلى عامة أهل اليمين، ويُؤيد هذا قوله ﷺ:

" خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " ،

وصرّح في حديث آخر أنهم جميعاً من أمته، فقال:

" الفرقتان من أمتي " ،

فسابق أول الأمة ثلة، وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل. هـ. من الثعالبي.

وقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخرين: الأمة المحمدية، وهو بعيد أو فاسدٌ، واقتصر في نوادر الأصول على أنَّ الثلة الأنبياء، وخُتموا بمحمد ﷺ ومِنْ بعده الأولياء، وعددهم قليل في كل زمان.هـ

{ على سُرُرٍ } جمع سرير، { موضونةٍ }

قال ابن عباس: " مرمولة " ،

أَيّْ: منسوجة بقضبان الذهب، وقضبان اللؤلؤ الرطب، طولُ السرير: ثلاثمائة ذراع، فإذا أراد الجلوس تواضع، فإذا استوى عليه ارتفع،

{ متكئين عليها } حال من الضمير في الظرف، وهو العامل فيه،

أَيّْ: استقروا على سُرر متكئين عليها اتكاء الملوك على الأَسِرة، { متقابلين } ينظر بعضهم في وجوه بعض، ولا ينظر بعضهم من أقفاء بعض.

وُصفوا بحسن العِشْرة، وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة. وهو أيضاً حال.

{ يطوف عليهم } يَخدمهم { وِلدانٌ } غلمان، جمع وليدٍ، { مُخلَّدون } مُبْقَّوْنَ أبداً على شكل الولدان، لا يتحولون عنه إلى الكِبَر،

وقيل: مقرَّطون، والخِلَدَةُ: القُرْط، وهو ما يلقى في الأذن من الأخراص.

قيل: هم أطفال أهل الدنيا، لم يكن لهم حسنات يُثابون عليها، ولا سيئات يعاقبون عليها.

{ بأكوابٍ } جمع كوب، وهو آنية لا عروة لها ولا خرطوم،

{ وأباريقَ } جمع إبريق، وهو ما له خرطوم وعروة،

{ وكأسٍ } أَيّ: قدح فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب فلا يُسمى كأساً،

{ من مَعينٍ } من خمر، يجري من العيون، { لا يُصَدَّعون عنها } أَيّ: بسببها، أَيّ: لا يصدر عنها صُداع، وهو وجع الرأس، { ولا يُنزَفُونَ } ولا يسكرون، يقال: نزَف الرجل: ذهب عقله بالسُكر، فهو نزيف ومنزوف.

وقرأ أهل الكوفة بضم الياء وكسر الزاي،

أَيّ: لا ينفذ شرابهم، يقال: أُنزف القوم: إذا نفد شرابهم.

وفي الحديث: " زَمزمُ لا تُنْزَفُ ولا تُذَمّ " أَيّ: لا ينفذ ماؤها.

{ وفاكهةٍ مما يتَخيَّرون } أَيّ: يختارونه ويأخذون خيره وأفضله،

يجنونه بأيديهم، وهو أشد نعيماً وسروراً من أخذه مجنياً،

{ ولحم طيرٍ مما يشتهون } مما يتمنون مشوياً أو مطبوخاً،

{ وحُورٌ عِينٌ } أَيّ: وفيها حور عين، أو: لهم حور عين، ويجوز أن يعطف على " ولدان " أَيّ: وتخدمهم حُور عين، زيادة في التعظيم،

ومَن قرأ بالكسر، عطفه على " جنات النعيم "

كأنه قيل: هم في جنات النعيم وفاكهة ولحم طير وحور

{ كأمثالِ اللؤلؤ المكنونِ } في الصفاء والنقاء .

والمكنون: المصون في صَدفه.

وقال الزجاج: كأمثال الدُرِّ حين يخرج من صدفه، لم يُغيرّه الزمان

واختلاف الأيدي عليه، { جزاء بما كانوا يعملون } مفعول له،

أَيِّ: يفعل بهم ذلك لجزاء أعمالهم الصالحة أو: أَيِّ: يُجزَون جزاء، فنفس الدخول للجنة بمحض الرحمة، وكثرة النعيم والغُرف بالعمل، والترقي باليقين والمعرفة - والله تعالى أعلم - فلا تعارض.

{ لا يَسْمَعون فيها } في الجنة { لَغواً } باطلاً { ولا تأثيماً } هذياناً، أو: ما يُؤهم صاحبه لو كف، { إِلاَّ قِيلا } أَيِّ: قولاً { سلاماً سلاماً } أَيِّ: ذا سلامة. والاستثناء منقطع، و " سلاماً " بدل من " قيلاً " أو: مفعول به لـ " قيلاً " ، أَيِّ: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً، والمعنى: أنهم يُفشون السلام فيُسَلِّمون سلاماً بعد سلام، أو: لا يسمع كلٌّ من المسلِّم والمسلَّم عليه إلا سلام الآخر بدءاً ورداً.

والله تعالى أعلم.

الإشارة:

أخبر تعالى أنّ المقربين في الصدر الأول أكثر من الزمان الأخير، وهو كذلك من جهة الكمية، وأما من جهة الكيفية فالمقربون في آخر الزمان أعظم رتبةً، وأوسع علماً وتحقيقاً لأنهم نهضوا في زمان الغفلة، وجدُّوا في زمان الفترة، لم يجدوا من أهل الجدّ إلا قليلاً، ولا من أهل الحق إلا نذراً يسيراً، فحيث نهضوا وحدهم عوّضهم الله مرتبة لم يعطها لغيرهم،

ويشهد لهذا قوله

عليه السلام:

" اشتقت إلى إخواني " قال أصحابه، نحن إخوانك يا رسول الله؟

قال: " أنتم أصحابي، إخواني قوم يأتون بعدي، مِن نعتهم كذا وكذا "

ثم قال: " يعدل عمل واحد منهم سبعين منكم " قالوا: يا رسول الله منهم؟
قال: " منكم " قيل: بماذا يا رسول الله؟

قال: " إنكم وجدتم على الخير أعواناً، وهم لم يجدوا عليه أعواناً "

وفي حديث آخر، رواته ثقات:

" قالوا: يا رسول الله هل أحد خير منا؟

قال: " قوم يجيئون بعدكم، فيجدون كتاباً بين لوحين، يؤمنون بما فيه،
ويؤمنون بي، ولم يروني، ويُصَدِّقون بما جئتُ به،

ويعملون به، فهم خير منكم "

ولا يلزم من تفضيلهم مِن جهةٍ تفضيلهم مطلقاً.

ثم وصف المقرّبين بكونهم على سُرر الهداية، منسوجة بالعِز والعناية،
محفوفة بالنصر والرعاية، متكئين عليها، راسخين فيها، متقابلين

في المقامات والأخلاق، أيّ: يواجه بعضهم بعضاً بقلوبهم وأسرارهم،

لا تَباغض بينهم ولا تحاسد، تطوف عليهم الأكوان وتخدمهم،

" أنت مع الأكوان ما لم تشهد المُكوّن،

فإذا شهدت المُكوِّن كانت الأكوان معك "

: يُسقون بأكوابٍ وأباريق من علم الطريق، وكأس من خمر الحقيقة، فلا يتصدّعون من أجلها إذ ليست كخمر الدوالي، ولا يُنزفون: لا يسكرون سُكْر اصطلام، وإنما يسكرون سُكراً مشوباً بصَحْوٍ، إذا كان الساقي عارفاً ماهراً .

وفاكهة حلاوة الشهود، مما يتخيرون، إن شاؤوا بالفكرة والنظرة،

وإن شاؤوا بالذِكر والمذاكرة، وكان بعض أشياخنا يقول:

خمرة الناس في الحضرة، وخمرتنا في الهدرة، أّيّْ: المذاكرة ز

ولحم طير من علوم الطريقة والشريعة، مما يشتهون منها،

وحُور: عِين من أبكار الحقائق، مصونة عن غير أهلها،

كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء على مجاهدتهم ومكابدتهم.

لا يسمعون في جنة المعارف لغواً ولا تأثيماً لتهذيب أخلاق أهلها،

كما قال ابن الفارض.

تُهذّبُ أخلاقَ النّدامى، فيَهْتدي بها

لطريقه العزم مَن لا له عَزْم

ويكرُمُ مَن لا يَعْرف الجودَ كَفّه

ويحلُمُ عند الغيظ مَن لا له حِلم..

فلا تسمع من الصوفية إلا قيلاً سلاماً سلاماً، كما قيل في حقيقة التصوُّف: أخلاقٌ كرام، ظهرت من قوم كرام، في زمن كريم.هـ

{ وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ } * { فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ } *

{ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ } * { وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ } * { وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ } *

{ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ } * { لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ } * { وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ } *

{ إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً } * { فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً } * { عُرُباً أَتْرَاباً } *

{ لأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ } * { ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلأَوَّلِينَ } * { وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلآخِرِينَ }

{ وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين }

استفهام تعجيب، تفخيماً لحالهم، وتعظيماً لشأنهم،

ثم ذكر نعيمهم فقال: { في سِدْرٍ مَّخْضُودٍ } والسدر: شجر النبق،

والمخضود: الذي لا شوك له، كأنه خُضِد شوكه،

أيّْ: قُطع، أيّْ: ليس هو كسِدر الدنيا، وقيل: مخضود،

أيّْ: ثنى إغصانه من كثرة حمله، من خَضَدَ الغصن: إذا ثناه وهو رطب.

قال ابن جُبَيْر: ثمرها أعظم من القلال، وثمار الجنة كلها بادية،

ليس شيء منها في غلاف.

رُوي أنَّ المسلمين نظروا إلى وادٍ بالطائف مخصب، فأعجبهم سِدرها،
وقالوا: يا ليت لنا مثله في الجنة، فنزلت،

وقال أمية بن أبي الصلت في وصف الجنة:

إنَّ الحَدائِقَ في الجِنان ظَلِيلةٌ فيها الكواعِبُ، سِدْرُهَا مَخْضُودُ.

{ وطَلْحٍ مَّنضُودٍ } الطلح: شجرة الموز، والمنضود: الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة، وفي جامع العُتْبية عن مالك، قال: بلغني أنّ الطلح المنضود، المذكور في الآية، هو الموز، وهو مما يشبه ثمار الجنة، لقوله تعالى:{ أُكُلُهَا دَآئِمٌ } [الرعد: 35]، والموز يؤكل في الشتاء والصيف.هـ.

{ وظِلّ ممدودٍ } منبسط، لا يتقلص ولا ينقطع، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

{ وماءٍ مسكوبٍ } جارٍ بلا أُخدود، يُسْكَب لهم أين شاؤوا، وكيف شاؤوا، بلا تعب.

{ وفاكهةٍ كثيرةٍ } بحسب الأنواع والأجناس،

{ لا مقطوعةٍ } لا تنقطع في بعض الأوقات، كفواكه الدنيا، بل هي دائمة،

{ ولا ممنوعةٍ } عن تناولها بوجه من الوجوه،

أو: لا يحظر عليها، كبساتين الدنيا،

أو: لا مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان.

{ وفُرُشٍ مرفوعةٍ } رفيعة القدر، أو: مرفوعة على الأسرَّة،

وقيل: كنّى بالفُرُش عن النساء لأنَّ المرأة يُكنّى عنها بالفراش،

مرفوعة على الأرائك، قال تعالى:{ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظَلاَلٍ

{ عَلَى الأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ } [يس: 65]، ويؤيده قوله: { إِنَّا أنشأناهن إِنشاءً }

أيّ: ابتدأنا خلقهن ابتداءً من غير ولادة. فإما أن يُراد: اللاتي ابتدئ إنشاؤهن،

وهن الحور، أو: اللاتي أُعيد إنشاؤن، وهن نساء الدنيا،

وعلى غير هذا التأويل أضمر لهنّ لأنّ ذكر الفُرش، وهي المضاجع، دلَّ عليه.

{ فجعلناهن أبكاراً } أيّ: عذارى، كلما أتاهنَ أزواجهنَ وجدوهنَ أبكاراً.

{ عُرُباً } جمع عَرُوب، وهي المحبّبة لزوجها، الحسنة التبعُّل،

{ أتراباً }: مستويات في السنّ، بنات ثلاثٍ وثلاثين، وأزواجهنّ كذلك.

{ لأصحاب } أيّ: أنشأناهن أصحاب { اليمين }.

{ ثُلةٌ } أيّ: أصحاب اليمين ثلة: جماعة كثيرة { من الأولين } ،

{ وثُلة } وجماعة كثيرة { من الآخرِين } فالسابقون كثيرون من الأولين
وقليل من الآخرين، وأصحاب اليمين كثيرون من الأولين والآخرين.

هذا المتعين في تفسير الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة:

أصحاب اليمين هم أهل الحجاب، المحصورون في سجن الأكوان،

المحيط بهم دوائر حسهم، من العُبّاد والزُهّاد، والعُلماء بالشرائع،
والصالحين الأبرار، وعامة المسلمين.

هم في سدر مخضود كثرة الأعمال المخضودة من شوك الرياء والعجب، المنزهة من الفتور والقصور، وطلح منضود حلاوة الطاعات،

وتحقيق المقامات، وظِلٍّ ممدود ظل راحة القناعة لمَن أُعطيها،

وروح الرضا والتسليم لمَن منحه .

وماء مسكوب عِلْم التوحيد البرهاني أو الإلهامي،

وفاكهة كثيرة: حلاوة المناجاة، وظهور الكرامات، ولذة التفنُّن

في العلوم الرسمية، لا مقطوعة ولا ممنوعة لمَن رسخ فيها.

وفُرش مرفوعة تفاوت درجاتهم على حسب أعمالهمز

إنّا أنشأناهن إنشاءً، لكل فريق مما تقدم، زيادة في عمله، أو علمه، أو زهده، على ما يليق بحاله، فكل صنفٍ له تَرقٍّ في فنه وزيادة في محله.

فجعلناهن أبكاراً لأن كل زيادة تكون جديدة لم يعهدها صاحبها،

عُرباً يعشقها وتعشقه، أتراباً، تكون على قدر حاله وفهمه وذوقه.

هذا لعامة أصحاب اليمين، وهم كثيرون، سَلفاً وخَلفاً.

{ وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ } * { فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ } *

{ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ } * { لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ } * { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ } * { وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ } *

{ وَكَانُواْ يِقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } *

{ أَوَ آبَآؤُنَا ٱلأَوَّلُونَ } * { قُلْ إِنَّ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ } *
{ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } * { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ }
* { لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ } * { فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ } *
{ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ } * { فَشَارِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ } *
{ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ } { نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ }

{ ما أصحابُ الشمال } تفظيع لشأنهم، والشمال والمشأمة واحد.
{ في سَمُوم } في حرّ نار تنفذ في المسامّ، { وحميم } وماء حارّ، تناهي في الحرارة، { وظِلٍّ من يَحْمُوم } من دخان أسود بهيم، { لا باردٍ } كسائر الظلال، { ولا كريم } فيه خير مّا في الجملة، سمّاه ظلاًّ، ثم نفى عنه برد الظل ورَوْحَه ونفعَه لمَن يأوي إليه من أذى الحر، وذلك كرمه - ليمحي عنه ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه،

والمعنى: أنه ظلٌّ حار ضارّ.

{ إِنهم كانوا قبل ذلك } أَيّْ: في الدنيا { مُتْرِفِينَ } منعّمين بأنواع النِعَم، من المآكل والمشارب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة، منهمكين في الشهوات، فمَنَعَهم ذلك من الانزجار، وشَغَلَهم عن الاعتبار.
وهو تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب، { وكانوا يُصِرُّون } يُداومون

{ على الحِنْثِ العظيم } أَيّْ: على الذنب العظيم، وهو الشرك

لأنه نقض عهد الميثاق، وخروج عن طاعة الملك إلى نصر غيره.

والحنث: نقض العهد الموثّق باليمين، أو: الكفر بالبعث،

لقوله:{ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ } [النحل: 38]،

ثم صار يُطلق على مطلق الذنب، ومنه: بلغ الغلامُ الحنث،

أَيّْ: وقت الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب.

{ وكانوا يقولون } لغاية عتوهم: { أئِذا مِتْنَا وكنا تراباً وعظاماً }

أَيّْ: إذا صارت أجزاؤنا من الجلد والعظم واللحم، بعضها تراباً،

وبعضها عظاماً نخرة، نُبعث بعد ذلك؟

وتقديم التراب لعراقته في الاستبعاد وانقلابها حيواناً.

{ أئنا لمبعوثون } أَيّْ: أنْبعث إذا صرنا في هذه الحالة؟

{ أَوَ آباؤنا الأولون } يُبعثون أيضاً؟

يعنون بذلك: أن بعث آبائهم أبعد في الوقوع من بعثهم.

وقرئ في السبع بأو العاطفة.ثم ردّ عليهم بقوله:{ قل إِنّ الأولين والآخِرين }
أَيّْ: إنّ الأولين من الأمم المتقدمين، الذين من جملتهم آباؤكم، والآخرين،
الذين من جملتهم أنتم. وفي تقديم " الأولين " مبالغة في الرد،

حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد مع مراعاة الترتيب،

{ لمجموعون } بالبعث { إِلى ميقاتٍ يومٍ معلوم } أَيّْ: إلى ما وقتت به الدنيا باعتبار فنائها من يوم معلوم، وهو يوم البعث والحساب، والإضافة بمعنى " من " كخاتم فضة.

{ ثم إِنكم أيها الضالون } عن الهدى { المكذِّبون } بالبعث، والخطاب لأهل مكة وأضرابهم، { لآكلون } بعد البعث والجمع ودخول جهنم { مِن شجرٍ مِن زقوم }.

{ فمالئُون منها البطونَ } أَيّْ: بطونكم من شدة الجوع، { فشاربون عليه } عقب ذلك بلا ريث { من الحميم } الماء الحار.

{ فشاربون شُرْبَ الهِيم } وهي الإبل التي بها الهُيَام، وهو داء يُصيبها فتشرب ولا تروَى، أَيّْ: لا يكون شربكم شراباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الإبل الهيم، وأحدها: " هيماء وأَهْيَم "

وحاصل الآية:

أنه يُسلط عليهم من الجوع ما يضطرون معه إلى أكل الزقوم، الذي هو كالمهل، وإذا ملأوا منه البطون يُسلّط عليهم ما يضطرّهم إلى شرب الحميم، الذي يُقَطِّع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهِيم، وإنما صحّ عطف الشاربين على الشاربين، وهما لذوات متّفقة، لأنَّ كونهم شاربين الحميم مع ما هو عليه من تناهي الحرارة،

وقطع الأمعاء، أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كشرب الهِيم الماء

أمر عجيب أيضاً، فكانت صفتين مختلفتين.

{ هذا نُزلُهم } النُزل: هو الرزق الذي يُعدّ للنازل تكرمةً له،

{ يَوْمَ الدَّينِ } يوم الجزاء، فإذا كان نُزلهم هذا، فما ظنك بعدما استقر بهم القرار، واطمأنت بهم الدار في النار؟ وفيه من التهكُّم ما لا يخفى.

{ نحن خلَقناكم فلولا } فلاّ { تُصَدِّقُونَ } تحضيض على التصديق،

إمَّا بالخَلق لأنهم وإن كانوا مصدّقين به إلاّ أنه لمّا كان مذهبهم

خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذّبون به،

وإمّا بالبعث لأنّ مَن خلَق أولاً لم يمتنع عليه أن يَخلق ثانياً.

الإشارة: أصحاب الشمال هم أهل الخذلان من العصاة والجُهال، في سَموم الجهل والبُعد، ينفذ في مسام أرواحهم وقلوبهم، وحميم الحرص والتعب، والجزع والهلع، وظِلٍّ من يحموم، وهو التدبير والاختيار، لا بارد ولا كريم، أَيّْ: ليس كظل الرضا وبرد التسليم، بل هو ظل مشؤوم،

حاجب عن شمس العيان، مُوقع في ظل الذل والطمع والهوان.

إنهم كانوا قبل ذلك قبل وقت وصول العارفين مُترفين متنعمين

في الحظوظ، منهمكين في الشهوات، وكانوا يُصِرُّون على الحنث العظيم، وهو حب الدنيا، الذي هو رأس كل خطيئة، وكانوا يُنكرون بعث الأرواح

من الجهل إلى العرفان، ويقولون: { أئذا متنا وكنا تراباً } ،

أَيِّ: أرضيين بشريين، وعظاماً يابسين بالقسوة والبُعد،

{ أئنا لمبعوثون } من هذه الموتة إلى حياة أرواحنا بالعلم والمعرفة؟
والحاصل: أنهم كانوا ينكرون وجود أهل التربية الذي يُحيي اللّهُ

بهم القلوبَ والأرواحَ الميتة بالجهل والغفلة.

قل إنَّ الأولين منكم الذين كانوا على هذا الوصف، والآخرين

إلى يوم القيامة، لمجموعون إلى الحضرة، إذا صَحِبوا أهل التربية،

فيفتح الله عليهم إلى ميقات يوم معلوم، وهو الحد الذي سبق لفتحهم.

ثم إنكم أيها الضالون المكذّبون المنكِّرون لوجود الطبيب،

الذي يُحيي الأرواح الميتة والقلوب، { لآكلون من شجر من زقوم }

وهي شجرة الجهل وتوارد الشكوك والخواطر على قلوبكم، فمالئون منها
بطونكم، بحيث لا يبقى في بواطنكم متسع لأنوار اليقين والمعرفة،
فشاربون على ذلك من الحميم، وهو الغضب والتدبير والاختيار،

{ فشاربون شُرب الهيم } ، لا يملُّون منه ليلاً ولا نهاراً،

كذا يَظلُّون يَبنون ويَهدمون، وهو عين البطالة والتضييع.

{ هذا نُزلهم يوم الدين } ، أَيِّ: يوم يُجازِي الحقُّ

المتوجهين إليه بالوصال وراحة الاتصال.

{ نحن خلقناكم }: أنشأناكم من العدم، فلولا تُصدِّقون في إحياء أرواحكم
بالعلم والمعرفة بعد موتها، فإنّ القادر على إنشاء الأشباح

قادر على إحياء الأرواح. والله تعالى أعلم .

ثم برهن على ذلك، فقال: { أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ }

{ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ } * { ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ } *

{ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ } *

{ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ } *

{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلأُولَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ } * { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ } *

{ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ } *

{ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } * { إِنَّا لَمُغْرَمُونَ } *

{ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ } * { أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ } *

{ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ } *

{ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ } * { أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ } *

{ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ } *

{ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ } * { فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ }

{ أفرأيتم ما تُمْنُون } أَيّْ: تقذفونه في الأرحام من النُطف،

{ أأنتم تخلقونه } تُقدِّرونه وتُصورونه وتجعلونه بشراً سويّاً

{ أم نحن الخالقون } من غير علة ولا علاج "؟

قال الطيبي: وجه الاستدلال بهذه الآية على البعث

أن يُقال: إنّ المَني إنما يحصل من فضلة الهضم، وهو كالطل المنبث

في أطراف الأعضاء، وبهذا تشترك الأعضاء بالتذاذ الوقاع لحصول الانحلال عنها كلها، ثم إنّ الله سبحانه وتعالى يُسلط قوة الشهوة على البنية،

حتى إنها تجمع تلك الأجزاء الطلّية، والحاصل أن تلك الأجزاء كانت مفْترقة جدّاً أولاً في أطراف العالم، ثم إنه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان، فتفرّقت في أطراف بدنه، ثم جمعها الله في أوعية المَني، فأخرجها ماءً دافقاً إلى قرار الرحم، فإذا كان قادراً على جمع هذه الأجزاء المتفرقة،

وتكوين الحيوان منها، فإذا افترقت بالموت مرة أُخرى

لم يمتنع عليها جمعها وتكوينها مرة أخرى. هـ.

وذَكَرَ عند قوله تعالى:{ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ } [الطارق: 7]

أنَّ المني يتولد من فضلة الهضم الرابع، وينفصل من جميع أجزاء البدن، فيأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته، ومعظمُهُ يتولد من الدماغ،

وهو أعظم الأعضاء معنويةً فيه. انظر بقيته في الحاشية.

{ نحن قدَّرنا بينكم الموتَ } أيّْ: قسمناه ووقّتنا موت كل أحد بوقت معين، حسبما تقتضيه قسمتنا، المبنية على الحِكَم البالغة.

قال القشيري: فيكون في الوقت الذي نريده، منكم مَنْ يموت طفلاً،

ومنكم مَن يموت شابّاً، وكهلاً وشيخاً، وبعللٍ مختلفة، وبأسباب متفاوتة، وأوقاتٍ مختلفة.هـ.

{ وما نحن بمسبوقين } بعاجزين { على أن نُبَدِّلَ أمثالَكم } بل نحن قادرون على ذلك، لا تسبقونني ولا تغلبونني على أن نُذهبكم، ونأتي مكانكم بأشباهكم من الخلق، والتبديل يكون بالذات أو بالصفات،

{ ونُنشِئَكم فيما لا تعلمون } ونخلقكم بعد التبديل في صورة لا تعهدونها.

قال الحسن: نجعلكم قردةً وخنازير، يعني: إنَّا نقدر على الأمرين جميعاً، أَيّْ: خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم.

أَيّْ: على أن نُبدّل ونُغيّر صفاتكم

التي أنتم عليها، وننشِئَكم في صفات لا تعلمونها.

{ ولقد علمتم النشأةَ الأولى } أَيّْ: فطرة آدم عليه السلام.

أو: خلقتهم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة... الخ،

{ فلولا تَذَكَّرُون } فهلاَّ تذكرون أنْ مَن قدر عليها قدر على النشأة الأخرى. ولمّا ذكّرهم بنعمة الإيجاد، ذكّرهم بنعمة الإمداد،

فقال: { أفرأيتم ما تحرثون } أَيّْ: ما تبذرون حبه وتقلِبون الأرض عليه،

{ أأنتم تزرعونه } أن: تُنبتونه وتُخرجونه من الأرض نباتاً

{ أم نحن الزارعون } المُنبِتون له؟

وفي الحديث

لا يقل أحدكم، زرعت، وليقل: حرثت " { لو نشاء لجعلناه حُطاماً } "
هشيماً منكسِراً قبل إدراكه، { فَظَلْتم } بسبب ذلك

{ تَفَكَّهُون } تتعجَّبُون من سوء حاله إثر ما شهدتموه على أحسن ما يكون،

أو: تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه،

أو: على ما اقترفتم من المعاصي التي أُصبتم لذلك من أجلها، و " تفكه "

كتخرّج، وتأثّم، أَيّْ: أزال الفُكَاهة، وهي المسرة، فتحصل الندامة،

{ إِنَّا لمُغْرَمُونَ } أَيّْ: قائلين: إنّا لملزمون غرامةَ ما أنفقنا فيها،

أو: لمهلَكون لِهلاك قوتنا، من: الغرام، وهو الهلاك،

{ بل نحن محرومون } حُرمنا ما رزقنا بشؤم تفريطنا،

فالمحروم هو الممنوع الرزق.

قال ابن عباس: " هو المحارَف " الذي انحرف عنه رزقه.

{ أفرأيتم الماءَ الذي تشربون } أَيّْ: الماء العذب الصالح للشرب،

{ أأنتم أنزلتموه من المُزنِ } السحاب الأبيض، وهو أعذب ماءٍ،

أو مطلق السحاب، واحدها " مزنة " ، { أم نحن المنزلون } بقدرتنا،
فأسكناه في الأرض، ثم أخرجناه عيوناً وأنهاراً؟

{ لو نشاء جعلناه أُجَاجاً } أَيّْ: ملحاً، أو مُرّاً لا يُقْدَر على شربه،

{ فلولا } فهلاَّ { تشكرون } تحضيض على شكر الكل

فأُدخلت في آية المطعوم دون المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم متقدم على أمر المشروب، وأنْ الوعيد بفقده أشد وأصعب،

مِن قِبَل أنّ المشروب إنما يُحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قُدِّمت

آية المطعوم على آية المشروب، وقيل غير ذلك في حكمة إدخالها.

{ أفرأيتم النارَ التي تُورون } أيّْ: تقدحونها وتستخرجونها من الزناد،

والعرب كانت تقدح بعودين، تحك أحدهما على الآخر، ويُسمون الأعلى:

الزند، والسفلى: الزندة، شبّهوهما بالفحل والطروقة الناقة يطرقها الفحل،.

{ أأنتم أنشأتم شجرتَهَا } التي بها الزناد،

المرْخ والعَفَار نوعان من الشجر يُقدح عود بعود من أحدهما مع الآخر وتتولد النار ،

{ أم نحن المنشئون } الخالقون لها ابتداءً بقدرتنا؟

والتعبير عن خلقها بالنشأ، المنبئ عن بديع الصنع، المُعْرِب عن كمال القدرة والحكمة لِما فيه من الغرابة الفارقة بينهما وبين سائر الأشجار،

التي لا تخلو عن النار، حتى قيل: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعَفَار، كما أنّ التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء

في قوله:{ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً ءَاخَرَ } [المؤمنون: 14] كذلك.

ثم بيَّن منافعها، فقال: { نحن جعلناها تذكرةً } تذكيراً لنار جهنم،

لينظروا إليها، ويذكروا ما وُعدوا به من نار جهنم، أو: تذكرة وأنموذجاً،

لما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال:

" نارُكم هذه التي يُوقدها بنو آدم هي جزءٌ من سبعين جزءاً من حَرِّ جهنم "

المراد المبالغة في الكثرة لا العدد

وقيل: تبصرة في أمر البعث فإنه ليس أبدع من إخراج النار من الشيء الرطب، { ومتاعاً للمُقْوين } منفعة للمقوين المسافرين

الذي ينزلون القِواء، وهو القفر.

وفي القاموس: القِيُّ: فقر الأرض، كالِقواء - بالكسر والمد: القفر. هـ.
وتخصيصهم بذلك لأنهم أحوج إليها فإنّ المقيمين والنازلين بقرب منازلهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد،

أو: للذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام،

من قولهم: أَقْوت الدار: إذا خلت من ساكنها والأول أحسن.
بدأ أولاً بنعمة الإيجاد، ثم بإمداد الطعام، ثم بالشراب،

وما يُعجن به من الطعام، ثم بما يطبخ به فلا يؤكل الطعام

إلاّ بعد هذه الثلاث، ولا يستغني عنه الجسد ما دام حيّاً في حكم العادة.

ولمَّا ذكر دلائل توحيده وقدرته، أمر بتنزيهه عمَّا لا يليق بحاله لأنّ العقل إذا أدرك الصانع سما إلى درك كنهه، فربما يقع في التشبيه أو التجسيم

أو التعطيل، فقال: { فَسَبِّح باسم ربك } أَيّْ: فنزّه ربك عما لا يليق به

أيها المستمع المستدل، فأراد بالاسم المسمى،

والباء صلة، أَيّْ: نزَّه ربك { العظيم } أو: نزّه ربك ملتبساً بذكر اسمه .

والعظيم: صفة للرب، أو للاسم، لأن المراد به المسمى. والله تعالى أعلم .

الإشارة:

أفرأيتم أيها الأساتذه ما تُمْنون من نُطف الإرادة في قلوب المريدين، أأنتم تخلقونه في قلوبهم حتى تنبت فيها بذرة الإرادة، وتهيج شجرة المحبة، فتُثمر بالمعرفة، أم نحن الخالقون؟ نحن قدّرنا بينكم الموت،

فمنكم مَن يموت الموت الحسي أو المعنوي قبل الوصول،

ومنكم مَن يموت بعد الوصول،

والموت المعنوي: هو الرجوع عن السير، ولا يكون إلاَّ قبل الوصول،

وما نحن بمسبوقين على أن نُبدل أمثالكم، ونُغيّر صفاتكم،

فإنّ القلوب بيد الله، وننشئكم فيما لا تعلمون من الجهل والبُعد.

ولقد علمتم النشأة الأولى، التي كنتم عليها حال الغفلة والبطالة

قبل ملاقاة الرجال، أفلا تذكرون فتشكرون على نعمة اليقظة والمعرفة.

أفرأيتم ما تحرثون من الأعمال والأحوال والمجاهدات والرياضات،

أأنتم تزرعونه، أيّ: تُنبتونه حتى يُقبل منكم، وتجنون ثماره،

أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لأبطلناه ورددناه فنجعله هباءً منثوراً، فظلتم تندمون على ما فات منكم من المشاق، حيث لم تجنوا ثمرتها،

تقولون: إنّا لمغرمون، حيث افتقرنا ودفعنا أموالنا في حال الجذبة الأولى، بل نحن محرمون من ثمار مجاهدتنا وطاعتنا، أفرأيتم الماء الذي تشربون، وهو ماء الحياة الذي تحيا به القلوب، تشربونه بوسائط الأساتذة،

يزقّه الشيخُ لروح المريد، كما يزق الطيرُ أفراخه، وبذلك تحيا روحه، فتغيب عن عوالم حسها،

أأنتم أنزلتموه من سحاب الهداية والعناية، أم نحن المنزِلون؟

لو نشاء جعلناه أُجاجاً فَتَمجه الروحُ بعد شربها، أو تمتنع من شربه،

فالأول للداخلين إذا لم تسعفهم رياح المقادير، فتنكسر سفينة سيرهم بعد الركوب، والثاني للطالبين المحرومين من أرزاق المعرفة.

فلولا تشكرون هذه النعم، حيث وفقكم لشرب الخمر،

ودمتم حتى سكرتم وصحوتم، وحييت بها أرواحكم وأشباحكم.

أفرأيتم النار نار الشهوة التي تُورون تقدحونها في نفوسكم، أأنتم أنشأتم شجرتها، وهي النفس الطبيعية، أم نحن المنشئون؟

نحن جعلناها تذكرة، أيّْ: إيقاظاً توقظ صاحبها ليتلجئ إلى مولاه،

وفي الحِكَم: " وحرَّك عليك النفس ليُديم إقبالك عليه ".

وجعلناها متاعاً للسائرين إذ بجهادها يتحقق سيرهم،

وبتصفيتها يتحقق كمالهم، وبفنائها يتحقق وصولهم،

وكان شيخ شيخنا حين يشتكي له أحد له بنفسه،

يقول: أما أنا فجزاها علي خيراً، ما ربحت إلاّ منها.

وقال القشيري: { أفرأيتم النار... } الخ، يشير إلى نار المحبة

المشتعلة الموقدة، بمقدح الطلب في حراقة قلب المحب الصادق

في سلوكه وشجرتها هي العناية الإلهية،

قول أبي الحسن المنصور: حين سُئل عن حقيقة المحبة،

فقال: هي العناية الإلهية السرميدة، لولاها ما كنت تدري ما الكتاب

ولا الإيمان، فنحن جلعناها تذكرة لأرباب النفوس البشرية،

ليهدتوا بها إلى سلوك طريق الحق، ومتاعاً للمُوقين،

أيّ: غذاء أرواح المحبين، الطاوين أياماً وليالي من الطعام والشراب،

كما رُوي عن سهل التستري: أنه كان يطوي ثلاثين يوماً،

وعن أبي عقيل المغربي: أنه ما أكل ستين سنة وهو مجاور بمكة،

وعن كثيرين من السالكين المرتاضين.هـ

وقوله تعالى: { فسبِّح باسم ربك العظيم }

قال الورتجبي: أَمَرَه أن ينزهه لا بنفسه بل بربه،

ثم قال: والإسم والمسمى واحد، أيّ:

قدسني بي فإني أعظم من أن تُقدسني بنفسك، أو بشيء دوني،

ألا ترى إشارة قوله: { العظيم }

أَيِّ: عظم جلاله أن يبلغ إلى أن تمدحه الخليقة، وأن تصِفة البرية.هـ

ثم أقسم على حقيّة القرآن المنزَّل بهذه الأخبار الغيبية، من العبث وغيره، فقال: { فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ }

{ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ } * { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } *
{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ } * { فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ } * { لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ } *
{ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ } * { أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ } *
{ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }

قلت: " فلا " أَيِّ: أنا أُقسم.

{ فلا أُقِسمُ بمواقعِ النجومِ } بمساقطها ومغاربها.

وقُرأ " بموقع " على الإفراد، وتخصيصها بالقَسَم لِمَا في غروبها

من زوال أثرها، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير،

أو: لأنّ ذلك وقت قيام المجتهدين والمبتهلين إليه تعالى،

وأوان نزول الرحمة والرضوان عليها، واستعظم ذلك بقوله:

{ وإنه لقَسَم لو تعلمون عظيمٌ } وهو اعتراض في اعتراض،

لأنه اعتراض بين القسم والمقسَم عليه بقوله: { إنه لقرآن كريمٌ }

أَيِّ: حسن مرضيّ، أو نفّاع جمّ المنافع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد.

أو: كريم على الله تعالى، واعترض بين الموصوف وصفته بـ { لو تعلمون } وجواب " لو " متروك، أريد به نفي علمهم،

أو: التقدير: وإنه لقسم لو تعلمون ذلك، لكن لا تعلمون كُنه ذلك،

أو: لو تعلمون ذلك لعظمتموه، أو: لعملتم بموجبه، { في كتابٍ مكنون } مَصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه مَن سواهم،

وهو اللوح المحفوظ.

{ لا يَمسُّه إِلاَّ المُطَهَّرون } أَيِّ: الملائكة المنزّهون عن الكدرات الجسمانية، وأوضار الذنوب. هذا إن جعلته صفة لكتاب مكنون، وهو اللوح،

وإن جعلته صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسّه

إلاَّ مَن هو على الطهارة مِن الناس، والمراد: المكتوب منه.

قال ابن جزي: فإن قلنا إنَّ الكتاب المكنون هو الصحف

التي بأيدي الملائكة، فالمطهَّرون يُراد به الملائكة لأنهم مُطهَّرون

من الذنوب والعيوب، وإن قلنا أنَّ الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الناس فيحتمل أن يريد بالمطهرين: المسلمين لأنهم مُطَهرون من الكفر،

أو يريد: المطهرين من الحدث الأكبر، وهو الجنابة والحيض،

فالطهارة على هذا: الاغتسال. أو: المطهرين من الحدث الأصغر، فالطهارة على هذا: الوضوء، ويحتمل أن يكون قوله: { لا يمسُّه } خبراً أو نهياً،

وأنكر بعضهم أن يكون نهياً، وقال: لو كان نهياً لكان بفتح السين.

والتحقيق: أن النهي يصح مع الضم ، خبر يحتمل أن يُراد به مجرد الإخبار،

أو: يكون خبراً بمعنى النهي، وإذا كان لمجرد الإخبار،

فالمعنى: لا يمسه إلاَّ المطهرون، أَيّْ: هذا حقه، وإن وقع خلاف ذلك.

واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مَسّ المصحف على حسب الاحتمالات

في الآية، فأجمعوا على أنه لا يمسه كافر، واختلفوا فيما سواه على أقوال

فقال بعضهم: لا يجوز أن يمسه الجُنب ولا الحائض ولا المحدِث الحدثَ الأصغر، وهذا قول مالك وأصحابه، ومَنعوا أيضاً أن يحمله بعلاقة

أو وسادة، وحجتهم: الآية، على أن يُراد بالمطهرين الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر، وقد احتج مالك في الموطأ بالآية،

و حجتهم: كتاب رسول الله ﷺ إلى عَمرو بن حزم ألاَّ يمسَّ القرآن إلا طاهرٌ

القول الثاني: أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدِث حدثاً أصغر،

وهو مذهب أحمد بن حنبل والظاهرية، وحملوا " المطهرين "

على أنهم المسلمون أو الملائكة.

والقول الثالث: أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر،

وحمل صاحب هذا القول " المطهرين "

على أن يُراد من الحدث: الأكبر، ورخَّص مالك في مسِّه على غير وضوء لمُعلِّم الصبيان لأجل المشقة.

واختلفوا في قراءة الجنب للقرآن، فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقاً، وأجازه الظاهرية مطلقاً، وأجاز مالك قراءة الآيات اليسيرة،

أيّْ: لتعوُّذ ونحوه. واختلفوا في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظاهر قلب، فعن مالك روايتان، وفرّق بعضهم بين الكثير واليسير.

ه. قلت: المشهور في الحائض والنفساء جواز القراءة مطلقاً.

وقال الكواشي عن ابن عطاء:

لا يفهم إشارات القراءة إلاَّ مَن طَهَّر سره من الأكوان. ه.

وفي آخر البخاري " لا يمسه ": لا يجد طعمه ونَفْعَه إلاَّ مَن آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلاَّ المؤمنُ لقوله:{ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَاةَ } [الجمعة: 5]. ه.

{ تنزيلٌ من رب العالمين }: صفة رابعة للقرآن، أيّْ: نزل من رب العالمين، وُصف بالمصدر لأنه نزل منجّماً من بين سائر الكتب، فكأنه في نفسه تنزيل، { أفبهذا الحديثِ } أيّْ: القرآن { أنتم مُّدْهِنون } متهاونون به،

كمَن يُدهن في بعض الأمر، أيّْ: يلين جانبه، فلا يتصلّب فيه تهاوناً به.

قال ابن عطية: قال ابن عباس: المداهنة هي المهاودة فيما لا يحل، والمداراة: المهادوة فيما يحل. ه.

{ وتجعلون رزقَكم أنكم تُكذِّبون } أيّْ: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب،

أيّْ: وضعتم التكذيب موضع الشكر.

وفي قراءة عليّ كرم الله وجهه، وهي مروية عن رسول الله ﷺ:

" وتجعلون شكركم أنكم تكذِّبون "

أيّْ: وتجعلون شكركم لنعمة القرآن التكذيب.

وقيل: نزلت في الأنواء ونسبة الأمطار إليها، أيّْ: وتجعلون شكر ما رزقكم الله من الغيث أنكم تكذّبون كونَه من الله، حيث تنسبونه إلى النجوم، وتقولون: مُطرنا بنوء كذا، والمنهي إنما هو اعتقاد التأثير للنجوم،

وقيل: مطلقاً، سدّاً للذريعة، وهو مقتضى كلام ابن رشد، وعزاه لسحنون. والمسألة خلافية،

وقد قال ﷺ: " إذا ذُكرت النجوم فأمْسِكوا " ،

ومنهم مَن فصّل في المسألة، فقال: يجوز إضافة الأفعال السيئة إليها لقوله ﷺ: " تعوّذوا بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب "

وأشار إلى القمر.

وأما الحسنة فالشكر يقتضي إضافتها إلى الله، وكذا الأدب.

والله تعالى أعلم.

الإشارة:

مواقع النجوم هي أسرار العارفين لأنه يغرق في بحارها كل ما سوى الله، وتغيب فيها نجوم العلم العقلي والنقلي، وأقمار التوحيد البرهاني لأنه

إذا أشرقت في قلوبهم شمس العرفان، لم يبقَ لنور النجوم والقمر أثر،

وقد قلت في قصيدتي العينية

تبدّت لنا شمسُ النهارِ وأشرقتْ فلم يَبق ضوءُ النجمِ والشمسُ طالعُ

قال: عبد الرحمن الفاسي:

كنتُ أعرف أربعة عشر علماً، فلما تعلمتُ علم الحقيقة شرطت ذلك كله.

يعني: وقع الاستغناء عنها، فالكنز الذي ظفر به من العلم بالله،

على نعت العيان، فلم يبقَ للروح التفات إلى شيء قط.

" ماذا فقد من وجدك "؟

وليس المراد أنها ذهبت معرفتها عنه،

بل لو رجع إليها لوجدها تشحرت واتسعت أمدادها، ولكن ظفر بعلم يُعد الاشتغال بغيره بطالة، كما قال الغزالي لابن العربي المعافري:

كنتَ الصاحِبَ في زمن البطالة، يعني: قبل ملاقاته بالشيخ.

وإنما كان القسم به عظيماً لأنه ليس عند الله أعظم من قلوب الواصلين وأسرار العارفين، لأنها وسعت الرب تعالى علماً وتجلياً،

" لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن ".

فالقَسم عظيم، والمُقسَم به أعظم، والمُقسَم عليه أعظم، وهو القرآن الكريم، { لا يسمّه إلاّ المطهرون }

قال الجنيد: لا يمسّه إلاّ العارفون بالله، المطهرون سرهم عما سوى الله.

أيّْ: لا يمس أبكار حقائقه ودقائق إشارته إلاّ القلوب المطهَرة من الأكدار والأغيار، وهي قلوب العارفين: { تنزيل من رب العالمين }

على سيد المرسلين، ثم غرفت أسرارَه قلوبُ خلفائه العارفين.

أفبهذا الحديث أنتم مدهنون.

قال القشيري: أيّْ: أنتم تتهاونون في قبول مثل هذا الكلام الحق،

وتعجبون من مثل هذه الحقيقيات والتدقيقات. هـ.

والعتاب لمَن يتهاون بعلم الإشارة ويُنكرها. ويتنكّب مطالعتها .

وتجعلون شكر رزقكم إياها - حيث استخرجها بواسطة قلوب العارفين - التكذيب بها والإنكار على أربابها. ثم أظهر عجزهم عند نزول قهرية الموت، فقال: { فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ }

{فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ } * { وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ } *

{ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لاَّ تُبْصِرُونَ } { فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ } * { تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } * { فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ } *

{ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ } * { وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ } *

{ فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ } * { وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ } * { فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ } * { وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ } * { إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ } *

{ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ }

يقول الحق جلّ جلاله لمَّا وبَّخهم على تكذيبهم بالقرآن الناطق بقوله:

{ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ } [الواقعة: 75]**، ثم أوقفهم على أنهم تحت قهر ملكوته، من حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معاشهم، عجزهم بقهرية الموت، فقال: { فلولا } أيّْ: هلاَّ { إِذا بلغتْ } الروح عند الموت { الحلقومَ }**

وهو ممرّ الطعام والشراب، وتداعت للخروج .

{ وأنتم حينئذٍ } أيها الحاضرون حول صاحبها { تنظرون } إلى ما هو فيه

من الغمرات، { ونحن أقربُ إِليه } علماً وقدرة وإحاطة { منكم }

حيث لا تعرفون من حاله إلاَّ ما تُشاهدون من أثر الشدة، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها،

ونحن المتولون لتفاصيل أحواله، { ولكن لا تُبصرون } لا تدركون ذلك لجهلكم بشؤوننا، { فلولا إِن كنتم غير مَدِينينَ } غير مربوبين مقهورين،

من: دان السلطان رعيته: إذا ساسهم واستعبدهم، والمحضَض عليه قوله: { ترجعونها } تردون الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم

{ إِن كنتم صادقين } أنكم غير مربوبين مقهورين.

وترتيب الآية: فلولا إذا بلغت الروحُ الحلقومَ، وأنتم تنظرون إليه،

يُعالج سكرات الموت، ترجعونها إلى الجسد إن كنتم غير مربوبين،

والمعنى: إنكم في عموم جحودكم إن أنزلت عليكم كتاباً قلتم: سحرٌ وافتراءٌ، وإن أرسلتُ إليكم رسولاً صادقاً قلتم: ساحرٌ كذابٌ،

وإن رزقتكم مطراً يُحييكم قلتم: صدق نوء كذا،

على مذهب التعطيل، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن إذا بلغ الحلقوم، إن كنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمُحيي المميت، المبدئ المعيد، وأنكم غير مربوبين مقهورين؟!.

ثم ذكر أحوال الأرواح عبد الموت في البرزخ، فقال: { فأمّا إِن كان } المتوفى

{ من المقرَّبين } من السابقين، من الأزواج الثلاثة المذكورة أول السورة، عبّر عنهم هنا بأجلّ أوصافهم، وهو شدة القرب، بعد أن عبّر عنهم أولاً بالسبق، فالسابقون هم المقربون،

وهم العارفون بالله معرفة العيان، أهل الفناء في الذات،

" عن ابن يعقوب، قال: سمعت أبا هريرة، يقول:

قال رسول الله ﷺ: " سبق المفردون "،

قالوا: يا رسول الله، ومن المفردون؟

قال: " الذين يهترون في ذكر الله "

"يهترون" يقال: أهتر -: إذا أولع بالشيء أخرجه أحمد في مسنده

فالسابقون هم المولعون بذكر الله، حتى امتزج مع لحمهم ودمهم، فحصل لهم القرب من الحق. { فَرَوْحٌ } أيّ: فلهم روح،

أَيِّ: راحة للروح لأرواحهم من هموم الدنيا وغمومها، ومن ضيق عالم الأشباح إلى خالص عالم الأرواح، مع أن هذا حاصل لهم قبل الموت،

لكن يتسع ميدانه بعد الموت، أو: رحمة تخصهم، أو: نسيم يهب عليهم.

وفي القاموس: الرَّوح - بالفتح: الراحة والرحمة ونعيم الريح. هـ.

وقرئ بالضم، وهي مروية عنه ﷺ، أَيِّ: الحياة والبقاء، أو: فله حياة طيبة دائمة لا موت فيها { وريحانٌ } أَيِّ: رزق، بلغة حِمْير، والمراد: رزق أرواحهم من العلوم والأسرار، أو: أشباحهم، فإنّ أرواحهم تتطور على شكر صاحبها، فتأكل من ثمار الجنة، وتشرب من أنهارها.

كما في حديث الشهداء، والصديقون أعظم منهم،

أو: جنة، أو: هو الريحان الذي يُشمّ.

قال أبو العالية: " لا يُفارق أحدٌ من المقربين الدنيا حتى يؤتى ببعض

من ريحان الجنة فيشمه، فتفيض روحه " ،

{ وجنةُ نعيم } تتنعّم فيها روحه في عالم البرزخ، ثم جسمه وروحه

بعد البعث، وهذا يقتضي أنّ الأرواح تدخل الجنة قبل البعث،

وهو خاص بالشهداء والصدِّيقين.

{ وأمّا إِن كان مِن أصحاب اليمين فسلامٌ لك من أصحاب اليمين }

أَيِّ: فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين،

أَيّْ: يسلّمون عليك فإنّ الروح إذا سُئلت في القبر عُرج بها إلى أرواح أهلها، فيتلقونه ويُسلّمون عليه، ويهنُّونه بالخروج من سجن الدنيا،

أو: سلامة لك يا محمد من أصحاب اليمين، فلا ترى فيهم إلاَّ السلامة.

{ وأمّا إِن كان من المكذّبين الضالين } هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم الذين قبل لهم: { ثم إنكم أيها الضالون المكذِّبون }... الخ،

{ فَنُزُلٌ من حَميم } أَيّْ: فله نُزل من حميم يشربه،

{ وتَصْلِيهُ جحيمٍ } إدخال في النار، ومقاساة ألوانِ عذابها.

وهذا يدل على أنّ الكافر بمجرد موته يدخل النار.

وقيل: معنى ذلك: ما يجده في القبر من سموم النار ودخانها.

ويحتمل: أن الآية لا تختص بعالم البرزخ، بل تعم البرزخ وما بعده.

وقد تكلم الناسُ عن الأرواح في عالم البرزخ،

وحاصل ما ظهر لنا من الأحاديث والأخبار:

أنّ أرواح الصدّيقين، وهم المقربون،

تتشكل على صورة أجسامهم، وتذهب حيث شاءت في الجنان وغيرها.

وأرواح الشهداء تدخل في حواصل طيور خُضر، تسرح في الجنة

حيث شاءت، لمّا كانت أرواحهم في الدنيا مسجونة في هيكل ذاتهم، سُجنت في حواصل الطيور، بخلاف العارفين لّمَا سرحت أفكارهم

في الملكوت والجبروت أُطلقت أرواحهم بعد الموت،

وأرواح الصالحين الأبرار وعامة المؤمنين، ممن لم ينفذ فيه الوعيد متفرقة في البرزخ، فمنهم في ظل شجرة المنتهَى،

ومنهم في السموات، على قدر سعيهم في الدنيا.

وكل صنف يُجمع مع صنفه جماعةً، فالعلماء مع صنفهم، والقراء كذلك، والصالحون كذلك، والأولياء كذلك، والمنهمكون في الدنيا إذا سلموا

من العذاب تكون أرواحهم كالنائم المستغرق، لا يشعر بمرور الأيام،

حتى يستيقظ بنفخة البعث، وأما مَن نفذ فيهم الوعيد،

فهم يُعذبون بأنواع من العذاب، وتذكَّر حديث البخاري في الرؤيا

التي رآها ﷺ في شأن الزناة وأكل الربا، وغيرهم.

وفي ابن حجر: أن أرواح المؤمنين في عليين، وأرواح الكافر في سجين،

ولكل روح بجسدها اتصال معنوي، لا يُشبه الاتصال في الحيلة الدنيا،

بل أشبه شيء به حال النائم، وإن كان هو أشد من حال النائم اتصالاً قال: وبهذا يُجمع بين ما ورد أن مقرها في عليين أو سجين،

وبين ما نقل ابن عبد البر عن الجمهور: أنها عند أَفْنية قبورها.

قال: ومع ذلك فهي مأذون لها في التصرُّف، وتأوي إلى محلها من عليين،

أو سجين، وإذا نقل الميت من قبر إلى قبر،

فالاتصال المذكور متصل، وكذا إذا تفرقت الأجزاء.هـ

وفي نوادر الأصول: إذا قَدِمَ المؤمنُ على ربه لقاه رَوحاً وريحاناً وبشرى على ألسنة الرسل، وهو قوله:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ } [فصلت: 30]، ثم يأمر له في قبره بكسوة من فِراش ودِثار ورياحين، وهو قوله:{ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } {الروم: 44}،

ويُنور له في مضجعه، ويُؤنسه بملائكته الكرام، إلى أن يلقاه فى القيامة، فيبعثه إلى الموطن الذي هيأ له نزلاً. هـ.

وقال في نوادر الأصول: إنّ الشهداء يُعجّل لهم تعالى اللقاء،

ويحييهم قبل نفخة الصور، ويكلمهم كِفاحاً، كما لأهل الجنة،

وليس لمَن دونهم من الأموات هذه الدرجة إلاّ للصدّيقين، فهم أجدر بذلك لبذلهم نفوسهم لله تعالى مدة أعمارهم، والشهداء

بذلوها في طاعة الله ساعة، فظهر أن للشهيد حياة خاصة على مَن دونه، وأحرى منه الصدّيق. هـ.

وبالجملة:

فالأرواح منها في البرزخ تجول وتُبصر أحوال أهل الدنيا،

ومنها تحت العرش، ومنها طيّارة في الجنان وإلى حيث شاءت،

على أقدارهم من السعي إلى الله أيام الحياة، ومنها ما تسرح وتتردد

إلى جثتها تزورها، ومنها ما يلقى أرواح المقبوضين.

وعن سَلمان: إنّ الأرواح المؤمنين - أيّ: الكُمل - تذهب في برازخ من الأرض حيث شاءت، بين السماء والأرض، حتى يردها الله إلى جسدها،

فإذا ترددت هذه الأرواح علمت بأحوال الأحياء،

وإذا ورد عليهم من الأحياء ميت، التفُّوا وتساءلوا عن الأخبار. هـ

قلت: وهذه أرواح العارفين دون غيرهم. والله تعالى أعلم.

وفي بعض الأثر: إذا مات العارف قبل لروحه: جُل حيث شئتِ.

{ إِنَّ هذا } أيّ: الذي ذكر في السورة الكريمة { لهو حقُّ اليقين }

أيّ: الحق الثابت من اليقين، أو: حق الخبر اليقين،

{ فسبِّح باسم ربك العظيم } الفاء لترتيب التسبيح، أو الأمر به على ما قبلها، فإنّ حقيّة ما فصل في تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الأمور التي من جملتها الإشراك والتكذيب بآياته الناطقة بالحق.

الإشارة:

فأمّا إن كان من المقربين فرَوْح الوصال، وريحان الجمال، ومِنّة الكمال،

أو: فرَوْح الفضاء، وريحان العطاء، وجنة البقاء،

أو: فروح الفناء، وريحان البقاء، وجنة الترقي أبداً سرمداً،

أو: فرَوْح الأنس لقلبه، وريحان القدس لروحه، وجنة الفردوس لنفسه،

{ وأمّا إِن كان مِن أصحاب اليمين فسلامٌ لك } أيِّ: فسلام عليك يا محمد

{ من أَصحاب اليمين } فهم يسلمون عليك، ويشتاقون إلى لقائك، ويرتاحون للقدوم عليك وصحبتك.

والحاصل: أنَّ المقرَّب راحته ونعيمه في وصاله بربه، وصاحب اليمين اشتياقه لرسوله، وراحته ونعيمه في حصبته وجواره،

فالمُقرَّب فانٍ في ذات الحق،

وصاحب اليمين فانٍ في رسوله ﷺ سيد الخلق، فأهل الفناء في الذات

هم المقربون، وأهل الفناء في النبي ﷺ هم أصحاب اليمين،

فحاصل الآية: { فأمّا إِن كان مِن المقربين } فهو لي، وأُجازيه برَوْح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان من أصحاب اليمين فمُسلم لك،

وهو من أصحاب اليمين، هذا حاصل ما حرره شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته .

وفي الإحياء ما حاصله:

أنَّ المقرَّب له الوصال إلى سعادة الملك،

وصاحب اليمين له النجاة، وهو سالك، والمقرَّب واصل،

والمعرِض عن الله له الجحيم .

والخبر عن ذلك كله حق يقين عند العارف بالله

لأنه أدرك ذلك كله مشاهدةً.

وفي القوت بعد كلام: وأيضاً للمقربين

من كل هولٍ رَوح به لشهادتهم القريب، وفي كل كربٍ ريحان لقرب الحبيب، كما لأهل اليمين من كل ذلك سلامة.هـ.

قال النسفي: رُوي أنَّ عثمان بن عفان دخل على ابن مسعود في مرض موته، فقال: ما تشتكي؟ فقال: ذنوبي، فقال: ما تشتهي؟

فقال: رحمة ربي - وفي رواية: ما يقضي ربي - فقال: أفلا تدعوا الطبيب؟ فقال: الطبيب أمرضني، فقال: ألا نأمر لك بعطاء؟

فقال: لا حاجة لي فيه، قال: ندفعه إلى بناتك، قال: لا حاجة لهن فيه،

قد أمرتهنّ بأن يقرأن سورة الواقعة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

" مَن قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً "

وليس في هذه السور الثلاث ذكر لفظ " الله " اقتربت، والرحمن، والواقعة.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

وصلّى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلّم.

تم بحمد الله وفضلة

تجديد 2025/11/8

إختصار وإعداد: الفنان قدري جاد

الهرم على بن أبي طالب